الفصل الرابع

ترجمة محمد عبده

الدور الأخير

اجتماعي ومصلح 1888 – 1905

لما عاد محمد عبده إلى وطنه لقى من المصريين الحفاوة والتكريم؛ لأنه كان في نظرهم رجلًا جاهد كثيرًا، وعانى كثيرًا في سبيل المطالبة بحريتهم، والسعي إلى رفعة المسلمين بوجه عام؛[177] قد برر هذه الثقة أعظم تبرير، وتقلب في أعظم المناصب تبعة، وأكثرها نفوذًا، وكان دائم النشاط فساهم في أعمال جليلة متنوعة.

في الحق، إنه لم ينل دائمًا رضاء الناس جميعًا، وقد حال دون ذلك ما كان يجاهد له من إصلاحات يجني تحقيقها على مصالح كبيرة لبعض الأقوام. ومع هذا فإن خصومه أنفسهم، لم يستطيعوا الشك في نزاهة أغراضه، وطهارة مقاصده، وحميته للدين، وحماسه للوطن، وكانت السنوات التي عاشها منذ عودته من منفاه، إلى أن وافاه القدر، أكثر أدوار حياته نشاطًا، وأحفلها بأجل مساعيه لمصر وللإسلام، بالرغم من

[177] هورتن جـ13 ، ص92.

أن هذا العهد خلا من الحوادث البارزة التي كانت من مميزات الأدوار السابقة.[178]

ولعل أصدق وصف لهذا الدور، هو ما روي بعد وفاته من أنه «كان لا يتم في مصر عمل كبير، إلا ويده فيه قبل كل يد، وسعيه فيه قبل كل سعي».[179]

عمل في القضاء الأهلي:

بعد أن شمله عفو الخديوي توفيق باشا، عين قاضيًا في المحاكم الأهلية الابتدائية.[180] وكان يود لو عاد إلى التدريس في دار العلوم؛ لأنه كان يحس أن التعليم ميدانه الصحيح الذي جربه، وذاق لذة التوفيق فيه. ولكن الخديوي أبى ذلك، خوفًا من تأثير أفكاره السياسية في التلاميذ.[181]

ولما وجد أنه لن يستطيع تحقيق هذه الأمنية، قبل المنصب الذي عرض عليه، فعين قاضيًا في بنها، ثم في الزقازيق، ثم القاهرة[182] وبعد عامين أي في سنة 1308

---

[178] مقدمة عبد الرازق وميشيل، ص36.

[179] تاريخ ج3، ص10و 79. ورد ما يقارب هذا في مشاهير ج1، ص283.

[180] نفس المصدر ج3، ص21.

[181] المنار ج8، ص467. آثر محمد عبده التدريس وإن كان يعلم أنه لا يرتقي فيه، وأنه يرتقي في القضاء إلى أعلى درجة — تاريخ ج3، ص242.

[182] تاريخ ج3، ص21، 121، 126، 152، 170، 242، 246. نفس المصدر ج3، ص21، 126، 162، 170. انظر مقدمة ميشيل وعبد الرازق ص36. وهورتن ج13، ص101، فإنه يذكر أنه عين قاضيًا في سنة 1892، معتمدًا على رواية الأجبشان غازيت (تاريخ ج3، ص152) التي تقول: إن العفو صدر عنه ويتم تعيينه في ذلك العام.

هجرية، 1890، عين مستشارًا في محكمة الاستئناف بالقاهرة.

ولما جلس على منصة القضاء، أخذ يتحرى الحق، وإصابة العدل في القضايا، وكان يسعى في حل المشاكل بالتوفيق بين الخصوم وإصلاح ما بينهم، كلما وجد سبيلًا، فإذا أعانه القانون على ذلك تمسك به، وإلا صرف النظر عن حرفية القانون، وأخذ يفسر القانون وروحه في أحكامه، ولم يتقيد بمراعاة الأشكال والصور، فأثار هذا عاصفة من النقد ممن كانوا يقلدون في القانون ويتمسكون بنصوصه.

وكم من قضية خالف فيها القانون عمدًا، مثل حكمه بالحبس على من تبين أنه شهد زورًا.[183] وكان يتوخى في أحكامه تربية الجمهور، وإيقاظ ضميره، وبخاصة فيما يتعلق

ولكن هذا التاريخ متأخر جدًّا لعودته إلى مصر حين صدر العفو عنه وتم تعيينه ، وكذلك يذكر هورتن تاريخًا متأخرًا لتعيينه مستشارًا في محكمة الاستئناف وهو سنة 1896.

[183] المار جـ8 ، ص 568 ، 469. تاريخ جـ3 ، ص 242 ، يسميه محمد رشيد رضا القاضي المجتهد لا المقلد أي الذي يصل إلى رأي مستقل بعد رجوعه إلى المصادر الأصلية التي يمكن أن يقوم عليها مثل هذا الرأي ولا يقنع باتباع ما قرره الأئمة السالفون والاجتهاد. في الشريعة والدين وقف عن أهل السلف على كبار الأئمة في القرون الأولى ، ولهذا قفل باب الاجتهاد منذ القرن الثالث الهجري ، وكان محمد عبده وأنصاره يطالبون بحق الاجتهاد في عصرهم لكي يكون الإسلام وبخاصة نظامه القضائي ملائمًا لحاجات العصر الحاضر ، ولما كان القانون المتبع في القضاء الأهلي ليس هو القانون الإسلامي في نقائه وبساطته ، فإن محمد رشيد رضا لم يقصد على ما يظهر بقوله هذا إلا أن محمد عبده أبدى نفس الاجتهاد في تطبيق القانون المتبع ، وهو يذكر أمثلة شيقة «لا يعتبر شرعية في الإسلام» كان محمد عبده مجتهدًا فيها مستقل الرأي وكان رأيه في هذا هو أن القانون وضع لأجل العدل وليس العدل لأجل القانون.

« يلاحظ أن القانون لم يكن ينص على معاقبة شاهد الزور في ذلك الوقت وقد أقرت الحكومة عمل الإمام وعدلت القانون بعد ذلك ليتمشى مع رأيه. انظر تاريخ جـ1 ، ص 422» المعرب.

بالفسق وشهادة الزور.[184] وكانت براعته في تحقيق القضايا، وفراسته في التمييز بين البريء والمجرم، أشهر من نار على علم.[185]

إصلاحات في الأزهر:

وفي نفس الوقت كان ميله إلى إصلاح الأزهر يزداد قوة، وعهده بهذا الميل القديم، يرجع إلى أيام الطلب بعد أن حضر دروس جمال الدين:

ولما كان الأزهر منارة العلم في مصر وفي العالم الإسلامي أجمع، فقد كان يعتقد أنه إذا أصلح الأزهر، فقد أصلح حال المسلمين.[186] وكان يتمنى لو أنه استطاع إصلاح الإدارة والتعليم فيه، ووسع في مناهجه حتى تشمل بعض العلوم الحديثة، وتقوى وجوه الشبه بينه وبين غيره من الجامعات الأوروبية.[187] بل كان يود فوق ذلك لو أنه استطاع أن يجعل للإسلام طابعًا جديدًا، وأن يصلحه في داخل حدود الأزهر نفسه، وهو مهبط العلوم الدينية، ومركزها القوي،

---

[184] يقال: إنه في بعض البلاد التي تولى القضاء فيها كالزقازيق كاد ينجح في تطهيرها من التزوير والفجور أثناء وجوده بها ، المنار جـ8 ، ص469.

[185] ذكر تاريخ جـ3 ، ص54 ، حادثة تمثل شهرته في القضاء.

[186] مشاهير جـ1 ، ص286 ، المنار جـ8 ، ص470.

[187] تاريخ جـ3 ، ص137 ، المنار جـ8 ، ص895. كان أمله في الإصلاح محصورًا في الأزهر ، فكان عازمًا على توسيع دائرة العلوم والعرفان فيه بإيجاد طوائف من الأخصائيين الذين يتقنون علمًا واحدًا يكونون فيه مرجعًا ، وكان يود أن يبدأ بإيجاد طائفة للقضاء الشرعي وطائفة تستعد للدعوة إلى الإسلام وأخرى للخطابة ووعظ العوام.

ويومئذ يحق له أن يتوقع نشر هذه الإصلاحات في مصر، وفي العالم الإسلامي كله؛ لما للأزهر من القوة والصيت، فيصبح منارة وهدى للمسلمين كافة.[188] وعلى أي حال كان عنده أن بقاء الأزهر على حاله في ذلك العصر محال، وكان يعتقد أنه إما أن يعمر، وإما أن يتم خرابه.[189]

قلنا: إن نفسه توجهت إلى إصلاح الأزهر منذ كان مجاورًا فيه،[190] فلما عاد من منفاه استأنف جهاده في هذا السبيل، وسعى في إقناع الشيخ محمد الأنباني، شيخ الأزهر حينذاك، بإدخال بعض العلوم الحديثة في مناهجه،[191] وأدرك من المعارضة التي كان يلقاها، أن جهوده في إصلاح الأزهر لن تثمر، إلا إذا كان مؤيدًا من أمير البلاد، ولكن الخديوي توفيق باشا ضن عليه بهذا التأييد.[192]

فلما توفى الخديوي توفيق باشا، وخلفه ابنه عباس حلمي الثاني، تقدم إليه محمد عبده بخطة لإصلاح الأزهر لينال عنده الحظوة،[193] ووفق إلى استصدار قانون تمهيدي

---

[188] تاريخ جـ3، ص24، 157، 242، 358.

[189] المنار جـ8، ص471.

[190] نفس المصدر ص400 — 471.

[191] نفس المصدر ص471، اقترح قراءة مقدمة ابن خلدون.

[192] تاريخ جـ3، ص166. عارض العلاء في إدخال العلوم الحديثة ؛ لأنها لا تنطبق على الإسلام كما فهموه — تاريخ جـ3، ص138.

[193] المنار جـ8، ص472.

في 17 رجب سنة 1312 هجرية – 15 يناير سنة 1895م[194] فألف مجلس لإدارة الأزهر، من أكابر شيوخه الذين يمثلون المذاهب الأربعة، ومثل الحكومة فيه الشيخ محمد عبده، وصديقه الشيخ عبد الكريم سلمان، دون أن يكون لشيخ الأزهر أو لمجلس إداراته رأى في انتخابهما.[195]

وكان محمد عبده من بادئ الأمر الروح المحركة لمجلس الإدارة، ومع أنه كان مؤيدًا من الخديوي، معززًا إلى حد ما بسلطان الحكومة، إلا أنه أحب أن يجري الإصلاح في الأزهر بإقناع شيوخه، فبدأ باستمالتهم بزيادة رواتبهم،[196] فبينما

---

[194] تاريخ جـ3، ص250.

[195] المنار جـ8، ص472، كان الشيخ الإنبابي شيخ الأزهر في ذلك الحين مريضًا، وكثرت شكوى الشيوخ من إداراته، ففي سنة 1312- 1894، وقبل تأليف مجلس الإدارة بشهر واحد عين الشيخ حسونة وكيلاً للأزهر بعد أن أخذ عليه العهد بإقامة النظام والاتفاق مع الإمام على الإصلاح. وفي سنة 1313 – 1895، أقنع الشيخ الانبابي بالاستقالة، فاستقال، وولى الشيخ حسونة شيخًا للأزهر – المنار جـ8، ص472، 73، يقول أنه اشتغل بالتدريس في مدارس الحكومة وعرف شيئًا من نظامها، وكان من المنتظر أن يساعد تعيينه على إصلاح التعليم في الأزهر، وعلى أي حال فقد عزل في سنة 1899 (فولرز مادة الأزهر في دائرة المعارف الإسلامية)، ثم خلفه الشيخ عبد الرحمن وولى باتفاقها مكانه السيد على البيلاوي في سنة 1320هـ (1902م). (المنار جـ8، ص957) وفي مارس سنة 1905 استقال الشيخ اليسد البيلاوي. وخلفه الشيخ عبد الرحمن الشربيني.

وهناك خلاف بين رواية المنار (جـ8، ص 76 – 77) ورواية فولرز عن التغييرات التي تعاقبت على مشيخة الأزهر ففولرز يجعل مشيخة الشيخ سليم من سنة 1899 إلى سنة 1905، ولا يشير بحرف إلى مشيخة البيلاوي. على أنه رواية المنار يؤيدها ما ورد في تاريخ الأستاذ الإمام جـ3، ص278، من اشترك الشيخ حسونه النواوي والسيد على البيلاوي في تشييع جنازة الشيخ محمد عبده وغياب الشيخ الشربيني، شيخ الأزهر لعهده، لانحراف صحته.

وفي خطاب من الشيخ إبراهيم بك الهلباوي إلى عبد الكريم سلمان إشارة إلى استقالة الشيخ على البيلاوي – انظر في تاريخ جـ3، ص167، روايته عن المشايخ الذين تعاقبوا على مشيخة الأزهر وخلاصتها في جـ1، ص493 – 494. ولم يكن محمد عبده شيخًا للأزهر قط كما زعم جولدزيهر، ص321.

[196] المنار جـ8، ص473 – 475، أجمل وصف إصلاحاته في الأزهر. ووردت بالتفصيل في تأبين الشيخ أحمد أبي خطوة للأستاذ الإمام – انظر تاريخ جـ3، ص250 وما بعدها.

كان الآفلون من الشيوخ يتناولون راتبًا يبلغ ستمائة قرش في الشهر، كان بعضهم لا يزيد راتبهم عن ستة عشر قرشًا، وكان الأكثرون لا راتب لهم، وإنما يعيشون على ما يأخذونه من تلاميذه أو يكسبونه من أعمالهم الأخرى.[197] فسعى محمد عبده حتى عينت خزينة الدولة مبلغ ألفي جنيه لمساعدة الأزهر، يصرف بنظام معلوم، لا برأي شيخ الأزهر وميله كما كان الحال في المبالغ السابقة، مع الوعد بزيادة المبلغ إذا جاء بفائدة، فكان هذا حجة له على وجوب تحديد رواتب العلماء وفقًا لدرجاتهم، حتى يعرف كل منهم مقدار ما يتناوله كل شهر بنظام من غير تزلف إلى شيخ الجامع، أو تعرض لأهوائه.

ثم استصدر بعد هذا قانون كساوى التشريف، وهي أردية تلبس في مناسبات معينة لتخص أصحابها بالتشريف، وتميزهم عن غيرهم، كما كان الحال في العصور الوسطى، فصارت تعطي لمستحقيها بمراعاة الأقدمية وغيرها من

ونشر هورتن هذه التفصيلات في جـ15، ص106 — 113. ووردت في دقة وإيجاز في مقدمة عبد الرازق وميشيل ص 37 و 38 ونشر المنار سنة 1905 تقريرًا عن الإصلاحات بعنوان «أعمال مجلس إدارة الأزهر» من سنة 1312 — 1322، 1895 — 1905. أي من بدء تأليفه إلى استقالة محمد عبده منه. انظر رأي فولرز في هذا التقرير في مادة الأزهر بدائرة المعارف الإسلامية. ونشر التاريخ جـ1، ص425 — 600 وصفًا مطولاً جدًّا لموقف الأزهر في ذلك العهد، والجهود التي بذلت لإصلاحه وما صادفت من مناوأة الرجعية والدسائس السياسية.

[197] تاريخ جـ3، ص250.

المؤهلات، وكان الرأي فيها من قبل لشيخ الجامع، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء.

ثم وجه عنايته إلى الاهتمام بمساكن المجاورين، فوجدها مزدحمة لا تتوفر فيها شرائط الصحة، ووجد المجاورين يعيشون على جراية لا تكفيهم، وهي تجري عليهم وفقًا لعادة قديمة جدًّا، فسعى إلى زيادتها، وارتفعت من 5000 رغيف في اليوم إلى 15000، ثم حصل على زيادة من ديوان الأوقاف أيده الخديوي في الحصول عليها ونظم الأوقاف الخيرية المحبوسة على الأزهر، وكانت في حال سيئة فزاد إيرادها من 4000 جنيه سنويًّا إلى 14750 جنيهًا.[198]

ووضع مجلس الإدارة نظامًا لتوزيع الجرايات اليومية التي كانت مصدر ثروة لبعض الشيوخ والموظفين، وسببًا دائمًا للتخاصم والمشاجرة.

أما أبناء العلماء الذين كانت تؤول إليهم المرتبات المنحلة عن آبائهم بعد وفاتهم، دون قيد أو شرط، فقد جعل لهم

---

[198] تاريخ ج3، ص251. تشمل هذه الأرقام إيراد ورواتب المساجد الملحقة بالأزهر، كالجامع الأحمدي والدسوقي ومعهدي دمياط والإسكندرية، ويظهر أنها صححت على أساس ما كانت عليه عند استقالة محمد عبده في سنة 1905. وتختلف رواية فولرز عن هذه الرواية بعض الاختلاف، وذلك في المقال الذي أشرنا إليه آنفًا، هذا وقد جاء في التقرير الرسمي الذي نشر سنة 1892 بعد تولية الخديوي عباس الثاني بوقت قصير أن عدد المدرسين كان 178 والمجاورين 8437. وفي تقرير سنة 1901 — 1902 كان عدد المدرسين 251 والمجاورين 10403، وهذه الأرقام التي كانت تتغير من عام إلى آخر كانت تشمل المعاهد الملحقة بالأزهر، كما شملت أرقام الدخل والرواتب هذه المعاهد أيضًا.

القانون شرطًا لاستيلائهم عليها، أن يداوموا على طلب العلم ليخلفوا آباءهم في التدريس.[199]

ثم زاد في الأماكن المعدة لسكنى المجاورين، وجدد الأثاث، وحسن الشرائط الصحية، وأوصل المياه إلى مساكنهم ليسهل عليهم أداء الفرائض. وأدخل الإضاءة بمصابيح الغاز بدلًا من إنارة الزيت القليل الضوء، وعين طبيب لمباشرة شئون الطلبة الصحية، ثم أنشئت صيدلية داخل الأزهر لصرف الأدوية مجانًا إلى المجاورين، وأنشئ لهم مستشفى فيما بعد.

ووجه عنايته كذلك إلى الشئون الإدارية، فأعدت مكاتب لإدارة الأزهر في بناء قريب منه، واستخدم عددًا من الكتاب لمعاونة شيخ الجامع في القيام بالأعمال الإدارية الجديدة، وكان شيخ الأزهر قبل ذلك يدير الشئون الإدارية في بيته، حيث يسعى إليه المدرسون والمجاورون ليرفعوا إليه أمرهم، بينما كان الجانب الأكبر من الأعمال العادية يقوم بها كاتب واحد، يستبد بالأمر فيها.

[199] تاريخ ج3، ص254. لما قطعت هذه المرتبات عن بعض أبناء العلماء الذين عجزوا عن طلب العلم رثى الشيخ عبده لفقرهم وجمع لهم من أهل البر والخير صدقة واسعة دفع هو جانبًا كبيرًا منها.

ثم أطال التفكير في نظام التدريس، ولكي يتسنى له الحصول على موافقة أغلبية المدرسين على التعديلات التي يرى إدخالها على المنهج، ألفت لجنة من نحو ثلاثين من أفاضل العلماء، وعهد إليها فحص العلوم التي تدرس بالفعل، والإشارة بما ترى إضافته إليها، على أن ترفع اقتراحاتها إلى مجلس الإدارة، فبينت اللجنة علوم المقاصد، وعلوم الوسائل،[200] وأضافت إلى علوم الوسائل الحساب، والجبر، وتاريخ الإسلام، والإنشاء، ومتن اللغة، وآدابها، ومبادئ الهندسة، وتقويم البلدان. وألزم طالب الامتحان للحصول على شهادة العالمية، بأدائه في علوم المقاصد وبعض علوم الوسائل، والحساب، والجبر، ثم حتم القانون أن يجنب الطلاب في السنين الأربع الأول قراءة الحواشي والتقارير المطولة، وأن يفرغوا لتحصيل جواهر العلم الدينية بطريقة سهلة التناول، وشرط عليهم التحلي بمحاسن الأخلاق الشرعية.

ثم وضع مجلس الإدارة طائفة من القرارات التكميلية، بعد أخذ رأي العلماء فيها، منها ما تناول طرائق التعليم وسلوك المدرسين، ومنها ما تعلق بسير الطالب وآدابه مع الأساتذة، ومع إخوانه من الطلاب.

---

[200] تاريخ جـ3، ص254.

ثم حددت أوقات الأجازات الدراسية، وقصر أجلها، حتى زادت شهور العمل من أربعة إلى ثمانية، وظهر أن القانون الجديد قد أدى إلى إقبال العلماء والطلاب على عملهم في جد ونشاط.

وكان متوسط عدد الذين يتقدمون إلى الامتحان ثلاثة في العام، ولم يتجاوز عددهم الستة في أي عام من الأعوام، فزاد بعد القانون الجديد إلى خمسة وتسعين نجح نحو ثلثهم.

وخشي بعض العلماء أن تحول العلوم الحديثة بين كثرة الطلاب وبين تحصيل العلوم القديمة المتداولة، فعقد الشيخ محمد عبده امتحانًا ليظهر أن نسبة الناجحين من الطلاب الذين درسوا العلوم الحديثة والعلوم القديمة أكبر منها في أولئك الذين قصروا همهم على دراسة العلوم القديمة[201] وحدها.

ثم تبين له أن مكتبة الأزهر كانت في أسوأ من الإهمال وسوء الانتفاع، بل كانت في الواقع لا وجود لها. كانت كتبها موزعة مشتتة في الأروقة المختلفة، وكن أكثرها في حال يرثى لها، وتسرب كثير من كتبها القيمة إلى أيدي الغربيين، وبيعت نفائسها إلى باعة الكتب بالثمن البخس، فجيء بهذه

[201] تاريخ جـ3، ص256.

الكتب من مخابئها محشوة في الغرائر والمقاطف، ووضعت في المكتبة، ثم رتبت وصنفت، ونظم ما بقي منها في الأروقة المهمة، وعنى بها عناية تامة.

ثم أنشئت أيضًا مكتبات في المعاهد التي ألحقت بالجامع الأزهر، كالجامع الأحمدي والدسوقي، ومعهدي دمياط والإسكندرية. وأصبحت تخضع لقانون الأزهر ونظامه، فنالت نصيبها من الإصلاحات التي أدخلت على المعهد الرئيسي، وأمل محمد عبده أن يتخذ من الأزهر مركزًا لحركة إصلاحية، ونهضة عقلية في البلاد كلها.

ثم عاد إلى التدريس في الأزهر وألقى دروسًا في التوحيد،[202] وتفسير القرآن، والبلاغة والمنطق.

وينبغي أن نشير هنا إلى ما أبداه الشيخ محمد عبده من عظيم الاهتمام بإحياء اللغة العربية، وأساليبها الفصحى.

---

[202] إن دروسه التي ألقاها في التوحيد هي نفس الدروس التي ألقاها في بيروت قبل ذلك بسنوات بعد أن هذبها بعض الشيء (وكان شقيقه حموده بك عبده قد كتبها) ثم طبعها. وأضاف إلى هوامشها بعض التعليقات والزيادات والتصحيحات أثناء تدريسه في الأزهر ، وأدخل محمد رشيد رضا — الذي حضر هذه الدروس — تعليقات الإمام في المتن نفسه (المنار جـ8، ص494) ، ونشرت باسم رسالة التوحيد في سنة 1315 — 1897. وعلق عليها محمد رشيد رضا ، ابتداء من الطبعة الثانية وصدرت لخامس مرة في مصر سنة 1346 (1926 — 1927) بعد أن عني بتصحيحها وأضيف إليها تعليقات جديدة — انظر مقدمة الطبعة الخامسة. أما دروسه في التفسير فقد نشرت أولًا في المنار ثم في كتاب مستقل في سنة 1904 وسنة 1905 وسنة 1911. نظر هورتن جـ13 ، ص99 — 100 ، ومقدمة عبد الرازق وميشيل بعنوان سيرة الشيخ محمد عبده ومؤلفاته.

وقد استعملها في دروسه، وخطبه، وأحاديثه في الأزهر وغيره، ولم يقتصر على هذا، بل سعى أيضًا لدى ديوان الأوقاف حتى قرر مبلغ مائة جنيه تصرف لأحد العلماء لتدريس أدب اللغة العربية الفصحى في الأزهر.[203]

لقد أسهبنا في بيان الجهود التي بذلها الشيخ محمد عبده لإصلاح الأزهر، لما كان يعلقه عليها من كبير الأهمية، ولأنها كانت معقد آماله في القيام بإصلاح شامل للإسلام.

ولقد كانت الجهود التي أنفقتها خلال الأعوام العشرة الأخيرة من حياته، متجهة إلى تحقيق هذه الأغراض، على أن مما يؤسف له، أن مقدار ما وفق إليه من نجاح لم يكن متناسبًا مع عظمة أغراضه، ولا مع إخلاصه في مساعيه، وما بذل من جهد مشكور.

في الحق إنه أدرك جزءًا من وطره، وحقق الجانب المادي من غاياته، أما النواحي الروحية، وهي أجل خطرًا، فكل ما نستطيع أن نقوله في شأنها هو أنه نجح في وضع الأسس التي يمكن أن يقوم عليها البناء في المستقبل.[204]

---

[203] تاريخ ج3، ص259. بدأ هذا العالم بقراءة كتاب الكامل للمبرد [وهو محمد بن يزيد الأزدى 826 — 898 انظر بروكلمان ج1 ، ص 108 — 109].

[204] مشاهير الشرق ج1 ، ص286 يرى المنار ج8، ص475، أن الإصلاح الحقيقي يتمثل في الدروس التي ألقاها الشيخ محمد عبده في الأزهر ، واستفاد منها الكثيرون ، وأنها محل الرجاء في هذا المكان.

وليس لك أن تستنتج من هذا، أن كل الأزهر بين أو كثرتهم كانوا يعارضون كل إصلاح، فإن كثيرًا من قادتهم كانوا يدركون ضرورته، وعاونوا الإمام عليه، وشجعوه في جهوده عندما كان يحظى بتأييد الخديوي، ولكنه لسوء الحظ تغير عليه،[205] وانقلب تأييده له إلى معارضة قوية للإصلاحات التي كان ينادى بها، فرجحت كفة المحافظين. ولما يئس محمد عبده من إدراك النجاح، استقال من مجلس الإدارة في 19 مارس سنة 1905[206] واستقال معه صديقه الشيخ عبد الكريم سلمان، وعضو آخر هو الشيخ السيد أحمد الحنبلي،[207] وكان هذا آخر عهده بالأزهر؛ لأنه توفى بعد شهور قليلة،

[205] مشاهير جـ1 ، ص 286. يروى أن كثرة المتعلمين من المصريين ، وبخاصة من درس منهم التعليم الحديث كانوا يقرون محمد عبده في وجوب الإصلاح ، ولم يكن هو أول من أدر الحاجة إليه. ولكنه كان أول من جرأ على المجاهرة بذلك — وهذا جوهر رأي المنار أيضًا. (جـ8 ، ص235 — 236).

[206] تاريخ جـ3 ، ص165.

[207] المنار جـ1 ، ص76 — تلي هذه الاستقالات استقالة الشيخ على البيلاوي شيخ الأزهر لعهده واستقال قبله ممثلو المذهبين الشافعي والمالكي ، وكانت استقالة محمد عبده بمحض إرادته ولم تعزله الحكومة ، ولم يكن للرجعيين يد في هذا الأمر. (انظر تاريخ جـ3 ، ص79 هامش) أما الشيخ حسونه النواوى فلم يكن معارضًا للإصلاح عندما كان شيخًا للأزهر ، ولكنه كان يرجئه ويسوف فيه ؛ لأنه كان يرى أن التغييرات ينبغي أن تكون تدريجية (تاريخ جـ3 ، ص 198 هامش) ، ويظهر أن هذا كان رأي الجميع حتى أولئك الذين كانوا يعطفون على الإصلاح. (تاريخ جـ3 ، ص166) ، أما الشيخ سليم البشري الذي عينه الخديوي والذي تم في عهد مشيخته كثير من الإصلاحات الهامة لبرامج التدريس ، فقد عارض قرارات مجلس الإدارة وامتنع عن تنفيذها (المنار جـ8 ، ص 474 ، وتاريخ جـ1 ، ص493 — 494) ولم تقف معارضة الخديوي لمحمد عبده عند إصلاحاته في الأزهر بل عارضة أيضًا في إصلاح القضاء وديوان الأوقاف والسبب الذي يورده كتاب تاريخ الأستاذ الإمام (جـ1 ، ص 562 — 566) لهذه المعارضة هو أن الخديوي كان يريد أن يتخذ من الأزهر أداة لتقوية نفوذه السياسي ، وأن يجعل من أموال الأوقاف وسيلة للوصول إلى هذه الأغراض ، وكان محمد عبده يقف في سبيل ذلك.

وعاد الأزهر وقتًا ما إلى سيرته الأولى ونهجه المألوف لا يزعجه من الأمر شيء.[208]

عمد في الإفتاء:

في 3 يونيه سنة 1899[209] أسند الخديوي إلى الشيخ محمد عبده منصب الإفتاء في مصر بعد أن استقال منه الشيخ حسونة النواوي، فكان بحكم منصبه هذا، أكبر موظف له حق تفسير الشريعة للبلاد كلها، وفتاواه نهائية لا ينقضها شيء.

وكان أكثر الذين سلفوه في منصب الإفتاء، يظنون أن المفتي إنما يعين مستشارًا دينيًّا لمصالح الحكومة، فلا يكتب

---

[208] مقدمة الرسالة ص38 هامش 1 ، تذكر إصلاحات أخرى وبخاصة ما تعلق منها بتعديل مواد الدراسة وقد نفذت في سنة 1957 — انظر دائرة المعارف البريطانية مادة التعليم الحديث في مصر لتعرف الجهود التي بذلت في سبيل الإصلاح وكيف قوبت المعارضة إلى حد أن عدل عن الإصلاحات في سنة 1909. ومنذ ذلك الحين تجددت المطالبة بالإصلاح من وقت إلى آخر. ويذكر محرر الأجبشيبان غازيت (3 ديسمبر سنة 1927) أن الأمر أثير مرة أخرى وأن الحكومة اعتزت تأليف لجنة لتدلي برأيها فيه ، وذكر أن بعض مشروعات التجديد تتضمن أشياء لا تقل في خطورتها عن تغيير الأزهر نفسه ، وقد أورد «موريسون» التغييرات المقترحة في مقالة «الأزهر اليوم والغد» الذي نشره «العالم الإسلامي الصادر في أبريل سنة 926» ، ونفذت هذه التغييرات في 1930 ، انظر الهلال نوفمبر سنة 1 ص60 وما بعدها.

[209] يوافق هذا التاريخ ستًّا بقين من المحرم سنة 1317 ، انظر المنار جـ8 ، ص 487 ، وتاريخ جـ1 ، ص602. وقد خلف الشيخ حسونة الشيخ العباسي المهدي بعد وفاته سنة 1897 بعد أن ناب عنه نحو عامين في مرضه الذي أودى به. وكان الشيخ العباسي شيخًا للأزهر من سنة 1870 إلى سنة 1887 ، ما عدا عهدًا قصيرًا من سنة 1882 إلى 1883 ، وكان فوق هذا مفتيًا للديار المصرية من سنة 1264 — 1847 ، إلى تاريخ وفاته (سنة 1887) ما عدا فترة قصيرة حل فيها مكانه الشيخ البنا — مشاهير جـ2 ، ص186 — 189 ، انظر ما كتبه ابنه الشيخ محمد عبد الخالق الحنفي. وقد خلف الشيخ محمد عبده في منصب الإفتاء الشيخ عبد القادر الرافعي ، ولكنه توفي في اليوم الذي أعلن فيه تعيينه رسميًّا ، انظر المنار جـ8 ، ص759 — 760.

ولا يفتي إلا في المسائل التي تحال عليه من تلك المصالح، وكل طلب يعرض له من الأفراد عن أي مسألة يطلب معرفة حكم اللّه فيها، يضرب عرض الحائط. [210]

فلما أسند هذا المنصب إلى الشيخ محمد عبده، خشي أن يكون اختصاصه ضيقًا محدودًا، وألا يتيح له كثيرًا من الفرص للخدمة العامة، بالرغم من علمه بأنه أسمى المناصب التي يتطلع إليها فقيه في الإسلام،[211] ولكنه وفق في إلباس وظيفته ثوبًا جديدًا من الرفعة والجلال، دأبه في كل وظيفة أسندت إليه[212] وفتح بابه لإفادة الأفراد[213] فجعل للمنصب شأنًا ونفوذًا لم يعرفا له من قبل، وظل متقلدًا منصب الإفتاء إلى أن وافته المنية. [214]

كانت الفتاوى العديدة التي أفتى بها، تتناول الأمور التي نشأت عن مخالطة المسلمين في مصر لغيرهم ممن

---

[210] تاريخ جـ3، ص279 ، جـ1 ، ص646. يستفتى مفتي الديار المصرية في الحكم بالإعدام الذي تصدره محاكم الجنايات وفي مسائل الأحوال الشخصية التي تحيلها عليه وزارة الحقانية ، وتصدر الفتوى الرسمية على مذهب أبي حنيفة ، أما الفتاوى الأخرى فعلى مذهب المستفتي تاريخ جـ1 ، ص646.

[211] المنار جـ8، ص487 — تاريخ جـ1 ، ص646.

[212] تاريخ جـ3، ص279.

[213] نفس المصدر ، ص279.

[214] ورد هذا في مشاهير جـ1 ، ص282 ، وعبد الرازق وميشيل ، ص38، وجولدزيهر ص621 ، واتفقت جميع مرائي الصحف التي اشتملت عليها الجزء الثالث من كتاب تاريخ الأستاذ الإمام علي ذلك من غير استثناء ، ولكن هورتن يقول: إنه عزل من منصب الإفتاء قبل وفاته بشهور قليلة جـ 13 ، ص114 ، واستند في هذا إلى فقرة وردت في كتاب التاريخ جـ3 — 183 ، إذ يقول: «غير أنه لم يمض عليه إلا ثلاثة شهور حتى عزل من منصبه بسعي العلماء المضادين له» وهذه الفقرة تتعلق بمجلس الإدارة الذي استقال منه كما ذكرنا وليس بمنصب الإفتاء.

يخالفونهم في الجنس، ويباينونهم في الدين، وكانت تمس كذلك أحوال المدنية الحديثة، ولا سيما ما نشأ عن الظروف التي جعلت المصريين يخضعون للقانون أكثر من خضوعهم للشريعة.

وكانت فتاواه كلها تتميز بروح من الاستقلال والتحرر من أغلال التقليد، وتزخر بالرغبة القوية في جعل الإسلام ملائمًا لحاجات المدنية الحديثة، ولكن هاج الاستقلال في الرأي هاج عليه معارضة مرة ممن ظلوا يستمسكون بأهداب القديم.

وأشهر فتاواه اثنتان:

الأولى تحل للمسلم ذبائح الكتابيين.

والثانية تحل إيداع الأموال في صندوق التوفير، وأخذ الفائدة عليها.[215]

وأذاعت فتاواه شهرته في الآفاق، وأبعدت صيته في العالم الإسلامي، وجعلته زعيمًا من زعماء عصره يشار إليه

[215] تاريخ ج3، ص84، 167، 279، مقدمة الرسالة ص38، هورتن ج14، ص75. وذكر كتاب التاريخ وكتاب مشاهير ج1، ص287، فتوى ثالثة أحل فيها للمسلمين أن يلبسوا ملابس الكتابين أن ملابس الأوروبيين والأساس الذي بنى عليه هذه الفتاوي هو أن القرآن لم يرد فيه منع صريح، وبخاصة لمن هم مضطرون لمعاشرة الأوروبيين تاريخ ج1، ص167، نجد نصوص الفتاوى في تاريخ ج1، ص646 وما بعدها.

بالبنان، ويقصده القاصي والداني من مشارق الأرض ومغاربها، لاستفتائه فيما يريدون.[216]

ولم تقتصر جهوده على إصدار الفتاوى، بل كان من خير ما فعله تفتيشه للمحاكم الشرعية التي تحكم في الأحوال الشخصية حسب ما تقضي به الشريعة. وكان من اختصاص منصب الإفتاء ما هيأ له إشرافًا خاصًّا على هذه المحاكم، وقد دفعه الاهتمام بإصلاحها، وبما ينبغي أن يكون لها من احترام إلى الالتفات إليها بنوع خاص، فعهدت إليه الحكومة بتفتيشها، وأطلقت يده في ذلك،[217] فذهب إلى التفتيش في كل أرجاء القطر، وطاف الوجهين البحري والقبلي، ولم يدع محكمة مديرية أو مركزية إلا شاهدها بنفسه، وبحث أعمالها بحثًا دقيقًا، وتعرف حال موظفيها[218] وكان ما وصلت إليه المحاكم الشرعية من العجز راجعًا في الغالب إلى النقص في كفاءة القضاة وغيرهم من الموظفين، وعجزهم عن سلوك الطريق القانوني الصحيح، وقلة رواتبهم، وسوء الأماكن المخصصة للمحاكم،[219] وعدم لياقتها، فكتب تقريرًا وصف

---

[216] المنار ، جـ8 ، ص487.

[217] تاريخ جـ3 ، ص156 ، هامش جعل حجته في التفتيش أنه شيخ الحنفية وعضو في لجنة انتخاب القضاة ، فلا بد له من معرفة حال الموجودين منهم في الوظائف ، وأن يهيئ لها من يخلفهم عند انفصالهم منها ، (تاريخ جـ3 ، ص262).

[218] تاريخ جـ3 ، ص248 ، 262.

[219] نفس المصدر ، ص248.

فيه تلك الحال السيئة، وبين طرق علاجها وما يراه لإصلاح تعليم القضاة، ورفعه إلى نظارة الحقانية، فأحلته محل الاعتبار، واتخذت الإجراءات الكفيلة بتنفيذ ما تيسر منه،[220] واهتم مجلس شورى القوانين في ذلك العهد أيضًا بإصلاح المحاكم الشرعية، فألقت الحكومة بناء على طلبه لجنتين برئاسة الشيخ محمد عبده، إحداهما تتألف من نخبة من أفاضل العلماء، لجمع ما يلزم لعمل القضاة من الأحكام الشرعية، والثانية من أكابر العلماء وبعض ذوي الشأن، لتقترح مشروعًا لإنشاء مدرسة القضاء الشرعي،[221] وقدم الشيخ محمد عبده مشروعه إلى الحكومة قبل سفره إلى الإسكندرية بأيام قلائل، حيث مرض بها المرض الذي توفى به.[222]

وبحكم وظيفة الإفتاء، كان الشيخ محمد عبده عضوًا في المجل الأعلى لإدارة الأوقاف، فسعى في تأليف لجنة كان هو أحد أعضائها للبحث في إصلاح حال المساجد وشروط الخدمة

---

[220] المنار جـ8، ص487، تاريخ جـ3، ص248، 263، وجـ1، ص606 وما بعدها، مقدمة الرسالة ص36، هرتن جـ14، ص74، و75. نشر التقرير على أجزاء في المنار جـ2، من أول الصفحات 577، 593، 609، 625، 648، 663، ونشرت مقدمته في ص759، انظر نص التقرير في تاريخ جـ1، ص608 وما بعدها.

[221] تاريخ جـ3، ص238، 263.

[222] نفس المصدر، ص248، 263، أنشئت مدرسة القضاء الشرعي بالفعل في سنة 1907، انظر دائرة المعارف البريطانية مادة التعليم الحديث في مصر.

فيها،[223] وكتب تقريرًا ضمنه اقتراحات للإصلاح، من أهم ما جاء به: أن يكون الأئمة، والخطباء، والمؤذنون ... إلخ، من علماء الأزهر، وأن يكلف الإمام بأن يدرس في الجامع الذي يوظف فيه درسًا لعامة الوافدين عليه والمصلين فيه، وأن تحسن راتب موظفي.[224] وقدم هذا التقرير إلى المجلس غير أنه لم ينفذ إلا جزء منه بسبب تدخل الخديوي في الموضوع.[225]

عمد في مجلس شورى القوانين:

بعد أن أسند إلى محمد عبده منصب الإفتاء، عين في 5 يونيه سنة 1899 عضوًا دائمًا في مجلس شورى القوانين، وحضر جلسته التي انعقدت في 29 يونيه.[226]

وكانت مصر حينذاك، حديثة العهد بالحكم النيابي، وتبدو هذه الحقيقة في تحديد سلطة المجلس، (فقد كان رأيه استشاريًا فقط)، وفي طرق قيامه بعمله، تلك الطرق التي كانت وليدة المصادفة، وفي ضعفه وعدم اطمئنان الحكومة

---

[223] المنار جـ8، ص488 — تاريخ جـ3، ص242، جـ1، ص630 وما بعدها.

[224] تاريخ جـ3، ص261 — لائحة المساجد في المنار جـ8، ص307 — 314، تاريخ جـ1، ص633، وما بعدها — هورتن جـ14، ص76.

[225] المنار جـ8، ص307، انظر تفاصيل معارضة الخديوي للائحة والوسائل التي استخدمها في ذلك في التاريخ، جـ1، ص558 وما بعدها.

[226] المنار جـ8، ص488 — تاريخ جـ1، ص719 وما بعدها وجـ3، ص247.

إليه وسوء التفاهم الذي كان بينه وبينها، وفقدان ثقتها فيه، وقلة تقديرها له. [227]

وقد أدى محمد عبده للمجلس خدمات جليلة، وبرهن على أنه برلماني قادر، وخطيب مفوه، وأثبت كفاءته في عضوية اللجان، كما أثبت أنه كان إداريًّا مجربًا، ومستشارًا حصيف الرأي، واسع الخبرة في جميع الشئون، فلم يلبث أن أصبح روح المجلس، مسموع الكلمة، محترم الرأي، وكان رئيسًا لأكثر اللجان الهامة التي كانت تفحص ما تحيله الحكومة إلى المجلس من الأعمال، ورأس كل لجنة عينها المجلس لتتفاهم مع الحكومة على أمر من الأمور، فدخلت المجلس روح جديدة من حسن التفاهم والثقة المتبادلة بينه وبين الحكومة التي أصبحت تحفل برأيه، وزاد اعتباره في نظرها، وفي نظر البلاد كلها.

وقد خص الشيخ محمد عبده هذه الأعمال بالكثير من وقته؛ لأنه كان يعتقد أنه يعاون على إصلاح الحكومة النيابية، وذلك بالمساهمة في خلق تقاليد من الجد والاهتمام بالبحث في الأمور العامة، وتربية الرأي العام، حتى إذا ارتقت هذه الملكة في هيئة المجلس، فإنها تنتقل منها إلى الهيئة التي

---

[227] المنار جـ8، ص488 – تاريخ جـ3، ص247 – 248 وجـ1، ص721 وما بعدها – هورتنن جـ13، ص103، مقدمة الرسالة ص37.

تخلفها، وكان في الوقت نفسه يعمل على تربية الأمة في جملتها، بتحميلها نصيبًا من التفكير في شئونها.[228]

عميد في الجمعية الخيرية الإسلامية:

لما تنقل محمد عبده في ربوع أوربا، تأثرت نفسه بما رآه من المعاهد الخيرية في تلك البلاد، وبما شاهده من اهتمام الناس بالتعاون على فعل الخير، والتضافر في أداء الخدمة العامة، ووجد أنه أمام أحد الاتجاهات التي ينبغي أن يحذو المسلمون فيها حذو الأمم المسيحية، فالإسلام يأمر بالإحسان الفردي، ويدعو إلى البر بالفقراء والمساكين ولكن حتى يومنا هذا، لم ينجح الجهد الاجتماعي المنظم لمساعدة الفقير وإعانة البائس نجاحًا كبيرًا في أي قطر من الأقطار الإسلامية.[229] فلكي يعود المسلمين الاجتماع للخير، والتعاون على البر والخدمة العامة، ولكي يشعر قلوب الأغنياء عاطفة الرحمة والإحسان إلى الفقراء،[230] دعا الشيخ محمد عبده إلى تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية في سنة 1310هـ،

---

[228] المنار جـ8، ص489، تاريخ جـ3، ص242.

[229] هذا معنى ما قرره محمد رشيد رضا في المنار جـ8، ص490، فإنه يقول: إن المسلمين يعوزهم شيء للحياة الاجتماعية في هذا العصر هو أهم شيء وعليه يتوقف كل شيء ... وهو التعاون على الخدمة العامة والأعمال المشتركة ، وإنك لا تكاد ترى في قطر إسلامي جمعيات ولا شركات ناجحة يرجى خيرها للأمة إلا ما بدأ به مسلمو الهند ومصر في ظل الحرية الإنجليزية ، ولا يزال كثيرة في مهد الطفولة.

[230] المنار جـ8 ص491.

(1892م)، وكان من أعضائها المؤسسين،[231] وكان غرض الجمعية المباشر إعانة العاجزين من المسلمين عن الكسب بالمال، وإنشاء المدارس لتعليم أبناء الفقراء الدين لم يكن في مقدورهم تحمل نفقات التعليم، فتضافر الشيخ محمد عبده مع غيره من المؤسسين، وبذل جهدًا عظيمًا في دعوة الأغنياء والوجهاء إلى تأييد الجمعية ومدها بالمال، وفي تنظيمها وتوجيه جهودها، والدفاع عنها، وهي في طور الطفولة، عندما نسب إليها أنها تضمر مقاصد سياسية وراء أعمالها الظاهرة.

وفي سنة 1318 – 1900 انتخب رئيسًا للجمعية، فزاد اجتهاده في خدمتها،[232] وظل في رياستها إلى أن عاجلته المنية.[233]

عمد في جمعية إحياء الكتب العربية:

أشرنا من قبل إلى الجهود التي بذلها محمد عبده، لما كان محررًا أول للوقائع المصرية، وأيام اتصاله بالأزهر، لإحياء اللغة العربية، والنهوض بها إلى المستوى الذي بلغته عندما كانت الثقافة العربية في أوج مجده. ولم يكن هذا تطرفًا منه

---

[231] نفس المصدر ، ص490 ، تاريخ ج3 ، ص234 ، وج1 ، ص726 وما بعدها.

[232] انظر نتائج جهوده في المنار ج8 ، ص491 ، وتاريخ ج3 ، ص244.

[233] تاريخ ج3 ، ص243.

في الحماس للعلم، بل كان يرى أن اللغة العربية هي أساس الدين،[234] وأن حياة المسلمين بدون حياة لغتهم من المحال،[235] فإصلاح اللغة إذن لا بد منه؛ لأنها وسيلة لإصلاح الدين.

وفي كلمته التي ألقاها في تونس على ملأ عظيم من العلماء والفضلاء، يقول:

«إن إصلاح لساننا هو الوسيلة المفردة لإصلاح عقائدنا، وجهل المسلمين بلسانهم هو الذي صدهم عن فهم ما جاء في كتب دينهم، وأقوال أسلافهم، ففي اللغة العربية الفصحى من ذخائر العلم، وكنوز الأدب، ما لا يمكن الوصول إليه إلا بتحصيل ملكة اللسان. [236]

على أنه كان يرى أن إحياء اللغة العربية، بمثل الكتب التي كانت تدرس في الأزهر محال،[237] وأن لا بد للإصلاح من إحياء نسب الأئمة وكبار العلماء «أيام كان العلم حيًّا في الأمة». فأسس في سنة 1900 جمعية تحت رأسته سميت

---

[234] تاريخ ج3، ص259.

[235] المنار ج8، ص491.

[236] تفسير سورة العصر وكتاب عام في التربية والتعليم، ص91، الطبعة الثانية مطبعة المنار، مصر سنة 1330 — 1911.

[237] المنار ج8، ص491.

«جمعية العلوم العربية».[238] وقامت بطبع كتابين بعد أن حصل الشيخ عبده على نسخ خطية لهما من الخارج،[239] ثم طبعت بمعونة الشيخ محمد الشنقيطي كتابًا في اللغة سبعة عشر مجلدًا،[240] وشرع في طبع كتاب الموطأ للإمام مالك، بعد أن جاء بنسخ خطية له من تونس، وفاس، وغيرهما من البلاد.[241]

ووالى بتشجيعه أولئك الذين كانوا يساهمون في إحياء النهضة الأدبية التي كان يعمل لها، سواء أكانت مساهمتهم بالتأليف، أم بالنقل من اللغات الأجنبية.[242]

دفاعه عن الإسلام:

حذا محمد عبده حذو جمال الدين، ونهج نهجه في الدفاع عن الإسلام، ورد هجمات الطاعنين عليه كلما اقتضى الحال ذلك، أو لاحت الفرصة له.

---

[238] المنار جـ8، ص491 — تاريخ جـ3، ص247، وجـ1، ص753 وما بعدها.

[239] هذان الكتابان هما أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني (المتوفى سنة 1078م. انظر بروكلمان جـ1، ص287 -288، هامش 4، 5).

[240] هو كتاب المخصص لابن سيده اللغوي الأندلسي (1007 — 1066) انظر بروكلمان جـ1، ص309.

[241] المنار جـ8، ص491. اسمه كتاب المدونة انظر هورتن جـ13، ص113. وانظر أيضًا كتاب محمد عبده إلى مولاي عبد العزيز سلطان المغرب الأقصى، وإلى مولاي إدريس بن عبد الهادي قاضي القضاة والمدرس بجامع القرويين بفاس وهما يتعلقان بطلب المخطوط. تاريخ جـ3، ص545، و546.

[242] تنسب جريدة الوطن الفضل إلى الشيخ محمد عبده في أن عرب حافظ إبراهيم الشاعر المشهور كتاب البؤساء، وقد أهداه المعرب إلى محمد عبده «موئل البائس ومرجع اليائس» تاريخ جـ2، ص553 — انظر خطاب المعرب إلى الشيخ عبده ورده عليه — انظر أيضًا رسائل الإمام إلى النقلة والمؤلفين، ص551 — 554.

وله في هذا مواقف مشهودة. أشهرها اثنان: أولهما رده على المسيو جبرائيل هانوتو، وزير الخارجية الفرنسية. والثاني: رده على فرح أنطون، محرر مجلة الجامعة، وكان رده على هذين الخصمين قويًّا مفحمًا، أذاع شهرته في العالم الإسلامي وجعله أقدر المحدثين في الدفاع عن الإسلام.

كانت جريدة الجورنال دي باري قد نشرت في أوائل سنة 1900، مقالًا للمسيو هانوتو بعنوان: «وجهًا لوجه مع الإسلام والمسألة الإسلامية». ونقل المؤيد هذا المقال.[243]

وكان الغرض الأول الذي رمى إليه المسيو هانوتو من مقاله هذا: هو أن يحرك الحكومة الفرنسية، والشعب الفرنسي، إلى التحقق من وجود اختلافات بين وجهة نظر الشعوب الإسلامية في المستعمرات الفرنسية، ووجهة النظر المسيحية، ولكي يحث حكومته على «تحرير متن سياسي وجيز» يتضمن أصول ومبادئ علاقاتهم مع العالم الإسلامي».[244] بعد إطالة البحث وإمعان النظر فيه. أراد أن يؤكد وجود الفروق بين الدينين، أو بعبارة أخرى بين المدنيتين: المسيحية والإسلامية، وإحداهما آرية الأصل

[243] تاريخ جـ2، ص372، مقال المسيو هانوتو ص382 — 395، ورد محمد عبده عليه ص395 — 411. انظر التفاصيل في تاريخ جـ1، ص789، وما بعدها.

[244] تاريخ جـ2، ص393.

والأخرى سامية النسب. فناقش هانوتو رأى كل منهما في مسألتين أساسيتين في الدين، وهما: ذات اللّه، والقضاء والقدر أو اختيار العبد في أفعاله. فاعتقاد المسيحيين في التثليث أو بعبارة أخرى في الإله الإنسان، واتصاله بالإله الرب بروح القدس، جعلهم يرفعون مرتبة الإنسان، ويخولونه حق القربى من الذات الإلهية، بينما العقيدة الإسلامية في التوحيد وفي تنزيه اللّه عن البشرية، وتقديسه إلى حد تنقطع فيه بينه وبين الإنسان، اتجهت إلى جعل الإنسان في حضيض الضعف، ودرك الوهن.

وكذلك العقيدة المسيحية القائلة بحرية الإنسان واختياره، دفعته إلى ميدان الجلاد والعمل، وألقت به في غمرات التنافس الحيوي، في حين أن المسلمين، جعلهم اعتقادهم في القضاء والقدر، يخضعون خضوعًا أعمى إلى ناموس لا يعرف التحول والتبدل.

ما كاد محمد عبده يقرأ هذا المقال في جريدة المؤيد حتى أرسل إليها في الحال رده عليه. واستهل مقاله بنقد علم المسيو هانوتو بالتاريخ، ثم قرر أن الحضارة التي وصل إليها الأوروبيون، لم تصل إليهم إلا مع المهاجرين الأولين الذين رحلوا إليها من البلاد الشرقية الآرية، وأن اليونان الذين

سماهم المسيو هانوتو معلمي أوروبا، اقتبسوا مدنيتهم من مخالطة الأمم السامية، وبينما كانت أوروبا لا تعرف مدنية غير التسافك في الدماء وإشهار الحرب، جاء الإسلام إليها حاملًا معه علوم أهل فارس والمصريين والرومان واليونان، بعد أن نظف جميع ذلك ونقاه من الأدران والأوساخ التي تراكمت عليه بأيدي الرؤساء في الأمم الغربية.[245]

ثم قرر الشيخ عبده أن الأمم يأخذ بعضها عن بعض في المدنية متى مست الحاجة، وقد أخذ الغرب الآري عن الشرق السامي، أكثر مما يأخذه الآن الشرق المضمحل عن الغرب المستقل.[246] فلم يبق من معنى للمدنية يريده المسيو هانوتو، إلا الدين.

وهنا يقرر محمد عبده أن دين التوحيد ليس دينًا ساميًّا بل هو دين عبراني فقط عرف به إبراهيم عليه السلام وبنوه، أما بقية الساميين من عرب وفينيقيين وآراميين وغيرهم فقد كانوا وثنيين. [247]

أما الكلام في القدر فلم يختص بملة من الملل، فقد عظم الخلاف بين المسيحيين أنفسهم في القول بالقدرة

---

[245] تاريخ جـ2 ، ص397.

[246] تاريخ جـ2 ، ص399.

[247] نفس المصدر ، ص400.

والاختيار، واستشهد الشيخ عبده بمذهب التوميين أتباع القديس توما والدومينيكيين وهم جبرية، بينما أشياع لويولا «الجزويت» قدرية اختيارية، وليس القول بالجبر مذهبًا سامي الأصل، كم يقول المسيو هانوتو، بل لم تنبت أصوله، وتتشعب فروعه إلا بين الآريين.[248] وقد عاب القرآن على أهل الجبر رأيهم وأنكر عليهم قولهم: «لَوْ شَاءَ اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمَنَا مِنْ شَيْءٍ» بقوله: {كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ}. وأثبت الكسب والاختيار في نحو أربع وستين آية، وجاء النبي والصحابة في صدر الإسلام في عملهم وقولهم بما يؤيد ذلك، فقد كانوا مثلًا في الدأب والسعي إلى نشر الإسلام، حتى كان من آثارهم في هذا السبيل ما يتألم منه اليوم هانوتو وأمثاله.

ثم يقول: «ولكن لا أنكر أن الزمان ابتلى المسلمين بمن فسد من المتصوفة ... ففشا الكسل بين المسلمين ... وهذا الضرب من المتصوفة أيضًا من حسنات الآريين فإنه جاءنا من الفرس والهنود».[249]

---

[248] نفس المصدر ، ص401.

[249] نفس المصدر ، ص403.

ثم ناقش محمد عبده النقطة الثانية، وهي العقيدة الخاصة بوحدانية اللّه وتنزيهه، ووازن بالمقارنات التاريخية بين فكرة اللّه عند الشعوب الإفريقية الساذجة وعند البوذيين والبراهمة، وبين نظرية فلاسفة اليونان وكهنة قدماء المصريين، وقرر أنهم انتهوا وهم في ذرى مدنيتهم إلى التوحيد، وأنه أسمى ما يصل إليه العقل الإنساني، بينما المسيحيون يصرحون بأن عقيدة التثليث لا مجال للعقل فيها.[250] وقد انبث دعاة المسيحية بين الوثنيين يدعونهم إلى الإله الواحد، وكان التنزيه قوام دعوتهم إلى أيام الإمبراطور قسطنطين، ولم تظهر آثار التشبيه فيهم إلا بعد قرون، وامتد الغلو في التشبيه، فاستشرى الفساد في الأمم النصرانية حتى ظهر الإصلاح.[251]

لما ظهر مقال الشيخ محمد عبده انبرت الأهرام للدفاع عن المسيو هانوتو زاعمة أنه حصل تحريف في ترجمة مقاله، ثم اطلع المسيو جبرائيل هانوتو على ما كتب في الأهرام الفرنسية، فكتب مقالًا آخر في جريدة الجورنال بعنوان: «الإسلام أيضًا»، وترجمته جريدة المؤيد في عددها الصادر في 21 مايو سنة 1900 وبين فيه هانوتو أنه لم

---

[250] تاريخ جـ2 ، ص406.

[251] نفس المصدر ، 407.

يقصد التهجم على الإسلام أو الطعن فيه، وأنه ينظر إليه بعين الاحترام والاعتدال والمسألة والتوفيق.[252]

ثم حدث بعد ذلك أن سافر صاحب الأهرام إلى باريس، فتحدث إلى المسيو هانوتو في الموضوع، ونشر الحديث في جريدته الصادرة في 16 يوليه سنة 1900،[253] ونفى هانوتو في حديثه هذا أنه قصد الطعن في الإسلام، وقرر أنه لا يستطيع مع هذا أن يقول، بأن الشرق سائر على منهاج حكومات أوروبا في العدالة والحرية والمدنية.

وأنه لا يعتقد أن الجمع بين السلطة الدينية والسلطة المدنية في الإسلام فيه ضمان لمستقبل الشرق السياسي، وأن أوروبا تعلمت كيف تفصل بين السلطتين لخيرها.

وأجاب محمد عبده على هذا الحديث في ثلاث مقالات نشرها المؤيد،[254] ودعا المسلمين إلى الاعتبار بما جاء في كلام المسيو هانوتو الذي أرشدهم إلى وجوه ضعفهم حتى

---

[252] نفس المصدر 411، انظر المقال ص452 — 458.

[253] نفس المصدر، ص458 — 467.

[254] نفس المصدر ص467 — 484، ظهرت المقالة الأولى في عدد المؤيد الصادر في 25 يوليه سنة 1900. انظر أيضًا الإسلام والرد على منتقديه مطبعة توفيق الأدبية — القاهرة 1343هـ 1924 — 1925م ص62، هامش فقد اشتمل على سلسلة مقالات هانوتو وأحاديثه ورد محمد عبده عليها وعلى أربع مقالات أخرى لمحمد عبده نقلت عن رسالة التوحيد ومقال لجمال الدين من كتابه الرد على الدهريين ومقال لمحمد بك فريد وجدي نقل عن كتابه المدنية والإسلام وسلسلة من المقالات التي ظهرت في المؤيد في يناير سنة 1900، خاصة بالمؤتمر الإسلامي للتعليم الذي عقد في كلكتا بالهند في 27 ديسمبر سنة 1899.

يجعلوا أنفهم لائقين لمنافسة أوروبا، وبين أغراض الجامعة الإسلامية التي أشار إليها المسيو هانوتو فأظهر أنها أغراض دينية لا سياسية، فهي محاولة لدعوة المسلمين إلى إصلاح شئونهم بالوسيلة الوحيدة التي يرجى نجاحها، وهي إصلاح الدين، واعترف صراحة بضعف المسلمين وعيوبهم التي يرجو إصلاحها بهذه الحركة، وقرر أن الأمراء السابقين لو اعتبروا أنفسهم أمراء الدين، لما استطاعوا المجاهرة بمخالفته بارتكاب المظالم، والمغالاة في وضع المغارم، والمبالغة في التبذير الذي جر الويل على بلاد المسلمين، وأعدمها أعز شيء لديها وهو الاستقلال. [255]

أما مقاله الثاني في الدفاع عن الإسلام فقد كان ردًّا على مقال كتبه المحرر المسيحي لمجلة الجامعة العثمانية، عن ابن رشد الفيلسوف المسلم الأندلسي المشهور، وعرض فيه للموازنة بين تسامح النصرانية والإسلام نحو العلم والفلسفة، وقرر أن المسيحية كانت أوسع صدرًا للعلماء والفلاسفة، وأقل اضطهادًا لهم، وأن هذا يرجع إلى أن الجمع بين السلطتين الدينية والمدنية في الإسلام جعل التسامح أصعب في الإسلام منه في النصرانية، ودلل على رحابة صدر المسيحية بانتصار العلم بالفعل على الاضطهاد المسيحي

[255] تاريخ جـ2، ص479.

في أوروبا؛ ولذلك نما غرسه وأثمر المدنية الحديثة، ولكنه لم يتمكن من التغلب على اضطهاد الإسلام له إلى وقتنا هذا، ثم ذهب المقل إلى أن علماء المسلمين ينكرون تأثير العلل الثانوية، وإلى أن ابن رشيد كان في الواقع زنديقًا.[256]

وقد تناول رد الشيخ عبده الكلام على المسائل الأربعة التي اشتمل عليها مقال فرح أنطون، أما الأولى فهي التي تقول: إن المسلمين أفسحوا صدورهم لفلاسفتهم دون غيرهم من أهل الأديان الأخرى.

وقد أثبت في رده سعة صدر المسلمين مع أهل الأديان الأخرى، والجنسيات المختلفة، بما ذكره من أسماء المؤرخين والفلاسفة غير المسلمين الذين عاشوا في كنف الإسلام.

وذهب فرح أنطون في النقطة الثانية إلى أن الفرق الإسلامية حارب بعضها البعض من أجل معتقداتهم الدينية، وقد أنكر الإمام ذلك ونفاه.

أما النقطة الثالثة، فهي التي تقول بأن طبيعة الإسلام تقضي على تسامحه إزاء العلم. بينما المسيحية تظاهره وتشجعه. وكان هذا القول في نظر الإمام أهم ما ورد في

---

[256] الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية – مطبعة المنار ، القاهرة ، الطبعة الثالثة 1341هـ 1921م ، ص4 ، 5 ، من المقدمة ، وص7 ، 8 ، 9 ، التي لخص فيها محمد عبده نقط البحث – وقد ظهر رده أولًا في مجلة المنار ونشر تحت العنوان السابق.

المقال، فأفاض في مناقشته، وأسهب في الرد عليه وتناول الأصول التي تبين طبيعة المسيحية وقارنها واحدًا فواحدًا، بمبادئ الإسلام، وبين ما بينهما من فروق، وأظهر غايات كل منهما ونزعاته.

أما النقطة الرابعة التي ذهبت إلى أن الأوربيين يجنون ثمار المدنية الحديثة بفضل ما في النصرانية من تسامح، فقد أجاب عليها مبينًا كيف أن المسيحية لم تكتف باضطهاد علمائها فحسب، بل اضطهدت أيضًا العلماء من سائر الملل الأخرى، وأظهر كيف خدم الإسلام العلم والمدنية، وكيف ظلل الأمراء المسلمون بحمايتهم العلماء ممن يشاركونهم في الدين أو يخالفونهم فيه، ثم أسهب في مناقشة الأسباب التي أدت إلى جمود المسلمين في العصر الحاضر، وما أفضى إليه من تأخر أحوالهم، وختم دفاعه بالرد على مسألة أثارها الكاتب، فتكلم على فلسفة ابن رشد، وعلى رأيه في المادة، والوجود، ورأى المتكلمين فيهما.

مشاريع لم تتم:

كانت استقالة محمد عبده من مجلس إدارة الأزهر سببًا في فشل الكثير من خططه، فقد نزل على رأي الشيخ على البيلاوي، شيخ الأزهر لعهده، فألقى دروسًا في التاريخ

الإسلامي، واعتزم أن يصنف فيه كتابًا مدرسيًّا على أحدث الطرق،[257] فلما انقطعت صلته بالأزهر، صرف فكره عن هذا الأمر.

هذا إلى أنه لما ألفى نفسه غير قادر على صد تيار المعارضة في الأزهر، أيقن بأن آماله في أن يجعل من الأزهر، مركزًا لتعليم رجال يصلحون الإسلام ويحيونه، لم يكتب لها التوفيق، ففكر عند ذاك في إنشاء معهد جديد لهذا الغرض، ينظمه حسب ما يتراءى له وأوقف سرى من الباشا قطعة من الأرض لبناء المعهد، وأخذ في إعداد الخطط اللازمة، لإنشائه ولكن تعطل المعهد لموته.[258]

وقد عاجلته المنية قبل أن يتم تفسيره للقرآن.[259] وكان قد فكر أيضًا في تأليف شركة تنشئ جريدة عربية يومية في القاهرة، تكون نموذجًا للصحافة على أن يدقق في اختيار محرريها وكتابها، وعلى أن يكون حل عنايتها بالإصلاح العام، ورواية الأخبار الصادقة الصحيحة، وأن يكون اهتمامًا

---

[257] المنار جـ8، ص899.

[258] أوقف الأرض المذكورة أحمد باشا المنشاوي المنار جـ8، ص895، وأنشأ المدرسة بعد ذلك محمد رشيد رضا، أنظر فيما بعد الكلام على مدرسة الدعوة والإرشاد.

[259] وصل في تفسير القرآن إلى سورة 4 آية 125 – المنار جـ18، سنة 1927، ص654، انظر الكلام على تفسير المنار فيما بعد.

بالشئون السياسية ضيقًا محدودًا، وقد تقدم المشرع كثيرًا ولكنه مات بموت الإمام. [260]

وكان أيضًا ينوي السياحة في بلاد الهند والفرس وروسيا، ليختبر حال المسلمين في المشرق، كما اختبرها في المغرب، فيعرف ما يصلح لجميع شعوب المسلمين من التربية والعمل، وما يصلح الآن لبعضها دون البعض. [261]

مرضه ووفاته:

مرض الشيخ عبده مرضه الأخير في منزل صديقه محمد بك راسم، برمل الإسكندرية ليلة سفره إلى أوروبا،[262] وكان مرضه طويلًا، ولكنه كان يبدو بسيطًا إلى أسبوع قبل وفاته. [263] وكان قد أصيب به من قبل في شكل خطير أثناء رحلته إلى السودان قبل الحوادث التي جرت في الأزهر وأفضت إلى استقالته،[264] وكان يعتزم السفر إلى أوروبا للمعالجة ثم يتوجه إلى مراكش،[265] ولكن سرعان ما ظهر استحالة السفر، وبعد مرض أيام قليلة نزل به قضاء اللّه في الساعة الخامسة

---

[260] المنار جـ8، ص896.

[261] نفس المصدر، ص896.

[262] تاريخ جـ3، ص9، 78.

[263] نفس المصدر، ص76، 79، 151، أصيب بسرطان في الكلى.

[264] أي في الشتاء السباق — تاريخ جـ3، ص179 هامش.

[265] نفس المصدر، ص151.

من مساء الثلاثاء 11 يوليه، سنة 1905، الموافق 8 جمادى الأولى سنة 1323. [266]

وفي صباح اليوم التالي، شيعت جنازته في احتفال مهيب إلى محطة السكة الحديدية حيث نقل جثمانه إلى القاهرة في قطار خاص أعدته الحكومة، ووقف في طريقه على كثير من المدن الكبيرة ليتمكن المعزون الذين ازدحمت بهم أرصفة المحطات من إبداء شعورهم نحو الفقيد الراحل. [267]

وكانت جنازته في القاهرة أكثر هيبة وجلالًا منها في الإسكندرية، سار فيها كبار الموظفين والممثلون السياسيون، وفرق من الجيش وفرسان البوليس، وأفاضل العلماء والرؤساء الروحيون، وكثير من السراة والوجهاء وطلاب الأزهر، وأناس كثيرون من جميع الطبقات والملل. ونقل جثمانه إلى الجامع الأزهر،[268] حيث صلى عليه، ولم تلق المرائي فوق جثمانه في الأزهر، كما كانت العادة عند وفاة كبار العلماء، تلك العادة التي أبطلها الشيخ محمد عبده

---

[266] نفس المصدر ، ص9، 60 ، 151 ، المنار ج8 ، ص378- لاحظت بعض الصحف (كالأهرام – تاريخ ج3 ، ص14) أن روتر نعى في نفس اليوم السر وليم ميور الحجة في تاريخ الإسلام والدكتور سدني سمث الأمريكي صديق الشيخ محمد عبده.

[267] تاريخ ج3 ، ص76.

[268] نفس المصدر ، ص40.

نفسه،[269] ثم سارت الجنازة بعد أداء الصلاة من المسجد إلى القرافة،[270] فوري التراب، ودعا حسن باشا عاصم الناس إلى الانصراف دون أن يترك لهم مجالًا لإلقاء المراثي،[271] ثم أقيمت حفلة التأبين في يوم الأربعين حسب العادة، وازدحم الناس وتكاثروا في المقبرة في ذلك اليوم، وتكلم ستة من الخطباء اختيروا من بين أصدقاء الفقيد الذين يعرفون مقاصده ومراميه، فعددوا مناقبه، وتكلموا على نواحي مختلفة من حياته وأعماله.[272]

صفاته وآثاره:

لما توفى الشيخ محمد عبه خفتت الأقلام التي كانت تقسو في نقده، وتلاشت الهجمات العنيفة والدسائس الخفية التي كانت توجه إلى شخصه وإلى أعماله،[273] والتي استفحل أمرها في العامين الأخيرين من حياته،[274] وقضى عليها

---

[269] نفس المصدر ، ص40 ، 171. لاحظت الصحف أن جنازته كانت خالية من البدع التي كان يحاربها فلم يكن فيها أحد من القراء ، ولا من حملة المباخر والمصاحف ومما يذكر لهذه المنابة أنه لما شيعت جنازة أم الشيخ محمد عبده منع كل هذه التقاليد في جنازتها — نفس المصدر 171 هامش.

[270] قرافة المجاورين نفس المصدر ، ص40.

[271] نفس المصدر ، ص40 ، 171.

[272] اختير هؤلاء من الخطباء مقدمًا لكثرة عدد الذين أرادوا رثاء الإمام وتأبينه ، أما الذين أبنوا الفقيد فهم حسن باشا عاصم ، وحسن باشا عبد الرازق ، والشيخ أحمد خطوة وقاسم بك أمين ، ثم شاعران هما حافظ إبراهيم وحفني ناصف ، وقد أبناه شعرًا — تاريخ ج3 ، ص236 ، 237.

[273] انظر جولدزيهر ، ص323.

[274] تاريخ ج2 ، ص84.

شعور البلاد كلها بعظم الخسارة التي منيت بها ومنى بها الإسلام بوفاته،[275] فنسي الخلاف في الرأي، والاختلاف في الدين، واشترك المسلمون واليهود والنصارى، في تبجيل الرجل الذي عرفوا الآن أنه وطني عظيم وخطيب مفوه، وزعيم شجاع، ومصلح بعيد النظر.[276]

لا شك في أن محمد عبده كان يمتاز بكثير من صفات الزعامة، فقد روى أنه كان ربعة قوي البنية، معتدل الجسم، غزير اللحية، حاد البصر، جهوري الصوت.[277]

وكان سريع الانفعال والتأثر، خطيبًا، ذرب اللسان، إذا خطب أفحم، بارعًا في الارتجال، متمسكًا بالعربية الفصحى في الكتابة والخطاب، فصيح اللسان بليغ العبارة قوي الذاكرة إلى حد غير عادي، راجح العقل، شديد الذكاء.

---

[275] نفس المصدر ، ص10.

[276] نفس المصدر ، ص60.

[277] انظر وصفه والكلام على مميزاته وأخلاقه وأعماله في مشاهير جـ1 ، ص283 ، وما بعدها والمنار جـ8 ، ص539 ، وما بعدها ، وص901 ، وتاريخ جـ3 ، ص45 — تأبين جريدة المقطم ونفس المصدر ، ص96 ، وما بعدها تأبين جريدة الضياء العربية التي كان يصدرها العالم السوري الشيخ إبراهيم اليازجي صديق محمد عبده ، وص264 وما بعدها ، تأبين قاسم بك أمين وص191 وما بعدها تأبين المقتطف ففيها أهم ما قيل في ذلك ، أما بقية الصحف فكان اهتمامها الأكبر بالكلام على حياته وأعماله.

وكان موفور النشاط، لا يكل من العمل المتواصل، وأظهر من المقدرة العملية، والكفاية الإدارية الشيء الكثير في مختلف الميادين.

أما عمله، فقد رفعه إلى مقام الصدارة بين علماء المسلمين في عصره، وأذاع شهرته في العالم الإسلامي، فقد أتقن جميع العلوم الإسلامية كالفلسفة والتوحيد، وتفسير القرآن، والفقه والحديث، وأتقن الآداب العربية إتقانًا بلغ حد الكمال، وكان له الفضل في تكييف أسلوبه الأدبي الذي استخدمه بطريقة عملية في التعليم، وفي نشر الكتب الأدبية القيمة.

وكان كبير العناية بالتاريخ الإسلامي فلم يكتف بدرس تاريخ ابن خلدون والتعليق عليه، بل جعل مقدمه لرسالة التوحيد وصفًا تاريخيًّا لتطور الإسلام أظهر فيها في جلاء ووضوح صدق أحكامه التاريخية، مما لم يعهد قبله في علماء الإسلام.[278]

على أن ما كتبه في الفلسفة يدل، كما قال الأستاذ هورتن، على أنه لم يكن ابن سينا بل لم يكن من الفلاسفة

[278] رسالة التوحيد الطبعة الخامسة هـ1346، 1929 — 1927، ص5، 25، وقد ضمن هذه الرسالة فضلًا ختاميًّا في انتشار الإسلام بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ وسبب ذلك ص201 وما بعدها.

الموهوبين،[279] ومع هذا ينبغي أن نسلم بما قرره هورتن عندما قال إن محاولة الشيخ عبده إقصاء الفلسفة الإسلامية التقليدية، وإحلال فلسفة جديدة محلها، وسعيه في سبك علم التوحيد في قالب أكثر تمشيًا مع طرائق التفكير الحديث، كل أولئك جعله يؤدي كل ما كان ينتظر منه في مثل هذه الظروف التي لم تكن مناسبة تمام المناسبة. [280]

وكان الشيخ عبده ملمًّا أيضًا بمصنفات العلماء الغربيين، قرأ ترجمتها العربية، ولما جاوز الأربعين تعلم اللغة الفرنسية لكي يقرأ مثل هذه المصنفات في لغتها الأصلية، وثابر على هذه القراءة فيما بعد.

وكان يعنى على وجه خاص بما كتبه العلماء في الاجتماع والأخلاق، والتاريخ والفلسفة وفن التربية، والتعليم،[281] وأعجب أيما إعجاب بهربرت سبنسر الفيلسوف الانجليزي، فزاره[282] في إنجلترا وترجم إلى العربية كتابه في التربية عن

---

[279] هورتن جـ14 ، ص83.

[280] نفس المصدر ، ص83.

[281] المنار جـ8 ، ص394.

[282] مع أن سبنسر كان في ذلك الوقت كبير السن ممتنعًا عن مقابلة الناس فقد أقنعه المستر ولفرد بلنت بمقابلة محمد عبده الذي ذهب إلى إنجلترا لهذه الغاية – تاريخ جـ3 ، ص182.

النص الفرنسي، لكي يستفيد من آرائه في وضع خططه لإصلاح المدارس المصرية. [283]

وحمله إعجابه بتولستوي، على أن يكتب إلى ذلك الروسي العظيم خطابًا عندما حرمته الكنيسة الروسية. [284]

وفي سفره الأخير إلى أوروبا تعلم الخط المسند، لما بين الدولة الحميرية وتاريخ العرب والإسلام من صلات. [285]

وقد أثرت شخصيته العظيمة في كل من عرفه، كان مهيب الطلعة، وقور المجلس، مترفعًا عن المداهنة والتملق للكبراء حتى أتهم بالكبر ولكنه كان في الواقع لطيفًا متواضعًا، كما كان يبدو من تأدبه وخطابه إلى أصدقائه وتلاميذه. وكان متسامحًا يعفو عمن عاداه، ويصفح عمن أساء إليه، ولكن لم يكن من اليسير أن تقهره على شيء. كان يغلب عليه حسن الظن بأصدقائه حتى أنه كان يخطئ في تقدير صدق طويتهم، وكان سخاؤه على الفقراء والمحتاجين

---

[283] تاريخ جـ3، ص103، 138، 182 — وربما كان المقصود بهذه الإشارة ما كتبه لإقناع أولى الأمر في مصر بضرورة الاهتمام بالتعليم الديني، انظر تاريخ جـ2، ص 364 — 381، وقد كتب هذه الاقتراحات بعد عودته من سوريا.

[284] تاريخ جـ2، ص547، انظر نص الخطاب ، وانظر أيضًا خطابين منه إلى قسيس انجليزي خطب في لندن مثنيًا على الإسلام — نفس المصدر، ص513، وما بعدها.

[285] المنار جـ8، ص394.

مضرب المثل فهو أبو البؤساء، وبيته في عين شمس كان يزج دائمًا بالعفاة وأصحاب الحاجات. [286]

وكان شديد الرأفة بالفقراء من طلاب الأزهر، وللكثير منهم في دفتره الخصوصي مرتبات شهرية،[287] وكان صادقًا، صريحًا في إبداء رأيه، يحاول الإنصاف في أحكامه ما أمكن،[288] ولا يقدم على عمل إلا بعد الروية والتدبر، والبصيرة والتثبت، ولكنه إذا وصل إلى قرار ما ثبت عليه ولم يعدل عنه. [289]

كان استقلاله في الرأي والعمل أمرًا مشهورًا، ولكنه مع هذا كان يستشير الآخرين ويستعن بهم. على أن الصفة التي أكبرها معاصروه فيه، والتي كانت من أهم صفات عظمته هي شجاعته الأدبية، وقد قالت إحدى الصحف العربية في رثائه: «إن الفقيد كان في بلاد الشرق، بلاد الرهبة والخوف والاستبداد، رجلًا جريء الفؤاد حر الضمير، يجاهر برأيه يثبت عليه، ولا يخشى بأس متسلط، ولا يهاب صولة كبير، وقد جر

---

[286] تاريخ جـ3، ص60، 98.

[287] نفس المصدر، ص361.

[288] لا يفي هذا القول ببيان شدة عنايته بتصحيح آرائه — انظر ما روى عن تفسيره للقرآن، المنار جـ8، ص548.

[289] المنار، جـ8، ص536 — قرأ بعض المصنفات الأوروبية في تربية الإرادة — نفس المصدر، ص394.

عليه ثباته على رأيه، وجرأته، وقلة خوفه ورهبته، أهوالًا كثيرة، ومصاعب ومحنًا عديدة.[290]

وكان إخلاصه للإسلام أهم باعث حفزه للعمل، وملك قياد نفسه. وكان مقتنعًا اقتناعًا قويًّا بأن الإسلام لا يمكن أن يلائم مطالب العصر الحاضر إلا إذا أصلحت طريقته إصلاحًا شاملًا، إصلاحًا يفضي في الواقع إلى نشأة إسلام جديد، وإن كان هذا الإصلاح في رأيه. هو رجوع بالإسلام إلى صورته الأولى. وكان حماسه في هذا الأمر لا حد له، حتى روى عنه أنه قال: «إنني لا أخشى شيئًا سوى الموت لأنه يقطع على خط السير».[291]

كان الكثير من أصحابه يشيرون عليه بأن يجتنب أسباب العناء، ويترك المناصب التي كان يتولاها ويستخدمها في تحقيق الإصلاح العام، وأن يعود إلى منصبه في الاستئناف براتب أعظم من راتبه وعلم أخف من عمله، فيعيش كغيره مطمئنًا خالي البال، ولكنه لم يستمع لنصح أصحابه، وقال صديق من أصدقائه: «إنه كما عرفته كان من المستحيل عليه أن يعيش عيشة أخرى».[292]

---

[290] تاريخ ج3، ص46. تأبين المقطم انظر أيضًا تأبين المقتطف، ص103، ومشاهير ج1، ص286.

[291] تاريخ ج3، ص37، 61.

[292] نفس المصدر، ص266، تأبين قاسم بك أمين.

وكان اهتمامه بتأخر أحوال الأقطار الإسلامية سببًا في أنه كان يقضي الليل ساهرًا يفكر في وسائل إصلاحها.[293] ومعه اهتمامه بالدين وبالشعوب الإسلامية على وجه عام، كان قلبه مفعمًا بحب وطنه، وكان هذا ملحوظًا على وجه خاص في بلد إسلامي كمصر، يحل فيه الولاء للإسلام محل الإخلاص للوطن.[294]

وكان في جميع جهوده يحدوه الأمل القوي في التوفيق وحسن المآل، وكان يغالب بهذا الأمل ما يصادفه من فشل ومتاعب. يقول قاسم أمين: «كان له أمل لا يزعزعه شيء في إصلاح أمته، وكان عنده اعتقاد متين في أن البذرة الطيبة متى ألقيت في أرض بلادنا الخصبة نبتت وأزهرت وأثمرت، كما نبتت وأزهرت وأثمرت بذور الفساد فيها؛ لهذا كان يلقى بملء يديه ما جمعه في حياته من الأفكار الصالحة، والعواطف الشريفة والتعاليم المفيدة».[295]

وجد محمد عبده أن المصريين ينقسمون في موقفهم من الإصلاحات التي كان يسعى في تحقيقه إلى طائفتين:

---

[293] المنار، ج8، ص550.

[294] تاريخ ج3، ص2 — 8، خطاب قاسم بك أمين — انظر رأي اللورد كرومر الذي يقول: في الحق أنه كان خياليًّا حالمًا بعض الشيء ولكنه كان وطنيًّا صادقًا» — مصر الحديثة ج2، ص180.

[295] تاريخ ج3، ص286، خطاب قاسم بك أمين.

فالمحافظون وكان يمثلهم الأزهريون وأنصارهم، كانوا يعارضون أي تغيير معارضة قوية ثابتة؛ لأنهم كانوا ينظرون إلى ما وصل إليهم من ذلك الماضي المجيد، نظرة التقديس فينبغي ألا يمسه التغيير والتبديل.

وطائفة أخرى هي طائفة الأحرار أو حزب المجددين، وقوامهم على الأغلب أولئك الذين تعلموا على الأساليب الحديثة، وهؤلاء كانوا لا يطيقون تقديس القديم الذي يقيد حرية الفكر، ويجعل التقدم محالًا.[296]

أما محمد عبده فكان[297] همزة الوصل بين القديم والحديث، وكان في رأس كل من الفريقين، فقد كان علمًا يهتدي بنور علمه فريق المحافظين الذين كانوا يعدونه نصير الإسلام والمدافع عنه وإن كانت نزعته إلى التجديد لا ترضيهم.

وكان المجددون يرون فيه الزعيم الذي يرجى من مبادئه وتعاليمه انبثاق الفجر لعهد جديد.

وعلى أي حال لم يكن جميع الذين عارضوه، ممن انتسبوا إلى طائفة المحافظين عن صدق وإخلاص. كان من بينهم

---

[296] مشاهير جـ1، ص286.

[297] تاريخ جـ3، ص45، 73، 103، 1904.

أصحاب المراكز المهمة الذين رأوا في جهوده أو في مبادئه ما يهدد مراكزهم، أو يسبب لهم شيئًا من المتاعب.[298] وبعضهم كانوا يستفيدون بشكل من الأشكال من بقاء الحالة الراهنة، والبعض الآخر من ذوي الأعراض الذين كانوا لا يستطيعون الوصول إلى أغراضهم إذا انضموا إلى حزبه.[299]

أما الذين كانوا يؤملون في نظم البلاد الإسلامية في وحدة سياسية يحكمها أمير مسلم، فقد كانوا يخافون من انتشار المدنية الحديثة بين الناس، وازدياد الصلات مع الشعوب غير الإسلامية؛ لأن ذلك يعرض خططهم الطامحة للخطر.[300] أما الجانب الأكبر ممن عارض آراءه وكثيرًا من أعماله فكان من المحافظين – عن علم أو عن جهل – وكانوا يرون أن السبيل الشرعي لوضع الأمور في نصابها هو الاعتماد على رواية السلف في الدين.

كانوا يقولون: «ما هذا الشيخ الذي يتكلم الفرنساوية، ويسيح في بلاد الافرنج، ويترجم مؤلفاتهم، وينقل عن فلاسفتهم، ويباحث علماءهم، ويفتي بما لم يقل به أحد من

---

[298] مشاهير جـ1 ، ص286.

[299] تاريخ جـ3، ص76.

[300] مشاهير جـ1 ، ص286.

المتقدمين، ويشترك في الجمعيات الخيرية ويجمع المال للفقراء والمنكوبين؟».[301]

وكانت هذه الأقوال وغيرها من الاتهامات الصريحة التي وجهت إلى عقيدته قد غررت بالعامة، وسممت أفكارهم، وهم لا يفهمون أغراضه الحقيقية التي كان يسعى إليها فمشوا كعادتهم وراء زعمائهم حتى اعتقدوا أن الرجل كان كافرًا، أو أنه كان يميل إلى الكفر.[302]

ومن ناحية أخرى نجد أن المجددين الذين نهجوا نهج الإمام وروضوا زعامته، كان بينهم من يرى أن وسائله في التجديد لا تبلغ الكمال المنشود. وهؤلاء هم الذين كانوا يقولون باصطناع عادات الأوربيين جملة، والأخذ بمدنيتهم ومحاكاتهم في أحوال معيشتهم، وأولئك هم المتعلمون على الطراز الأوروبي الذين نقدهم في أيامه الأولى؛ لأن آراءهم فيما ينبغي لإنهاض الأمة كانت سطحية.[303]

وبهذا وقف محمد عبده وأنصاره إلى حد ما موقفًا وسطًا. يقول اللورد كرومر: «لقد أسرفوا في رميهم بالكفر حتى عجزوا عن اكتساب المحافظين. ولم يكن فيما اصطنعوه من

---

[301] تاريخ ج3، ص268، خطاب قاسم بك أمين.

[302] تاريخ ج3، ص76، 154- مشاهير ج1، ص286.

[303] انظر ص46، فيما سبق.

المدينة الأوروبية ما يكفي لاكتساب أولئك الذين كانوا يقلدون الأوروبيين. فلم يكونوا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء».[304]

غير أن قوة النزوع إلى التقدم والإصلاح كانت عظيمة حقًّا، وكان انتشارها أوسع مما يدل عليه عدد الذين جاهروا بمناصرة الشيخ عبده والانضواء تحت لوائه[305] حتى في الأزهر كما رأينا كان هناك عدد كبير ممن يسلمون بضرورة الإصلاح ويوافقون على الجهود التي كان يبذلها في هذا السبيل. وكان في خارج الأزهر عدد من الذين يضمرون العطف على أغراضه أكبر جدًّا ممن هم في داخله. ولكن الخوف من الجهر بالرأي، والتردد، والقعود عن معاونة جهوده معاونة داخل الأزهر، كان له أثره خارج الأزهر أيضًا فأفضى إلى إخفات صوت مناصريه وشل جهودهم على أنهم أكثر عددًا، بينما كان المعارضون لا يفتر لهم نشاط ولا يخفت لهم صوت.

---

[304] مصر الحديثة جـ2 ، ص181.

[305] هورتن جـ14 ، ص77. يقول: «إنه كان خطباء حفلة التأبين يمثلون الطبقة المتعلمة والزعامة في نواحيها وكانوا في خطبهم يحذون حذوه فقد دلوا بذلك على نجاح جهوده الإصلاحية. وفي الذكرى السابعة عشرة لوفاته في 11 يوليه سنة 1922 أقام جماعة من أنصاره ومريديه حفلة بالجامعة المصرية لإحياء ذكراه وبسط الكلام في سيرته وأعماله — يقول المنار أن الحضور كانوا زهاء ألف وثلثمائه وذكر أحمد لطفي السيد مدير الجامعة المصرية في الخطاب الذي ألقاه أن أكثر الذين حضروا الحفلة هم تلاميذ محمد عبده أو تلاميذ تلاميذه — انظر المنار جـ23 ، ص513 وما بعدها — تاريخ جـ1 ، ص1053 وما بعدها.

ولعلم أكبر ما صادف الإمام في سبيل الإصلاح من عوائق، هو ضعف أنصاره وتردد العاطفين عليه، مع إقدام خصومه وثباتهم على معارضته. [306]

ولم يكن صيته ونفوذه قاصرين على مصر وحدها، فقد كتب إليه المسلمون من سائر البلاد الإسلامية، وقد اجتذبهم بحماسه لوطنه وحميته لدينه، يستفتونه في شئون دينهم وشرعهم ويلتمسون الاستفادة من علمه. [307]

وكانت في هذه الأمور أفاضل العلماء وأمراء المسلمين، وأصحاب المناصب السامية في البلاد الإسلامية، من الهند إلى مراكش. [308]

أم ما كان اسمه يدل عليه في الشرق كله، فيبدو في منع السلطان للصحف في سوريا وغيرها من أجزاء الإمبراطورية العثمانية من ذكر خبر وفاته أو تأبينه، أو الكلام على سيرته.

---

[306] تاريخ ج3، ص269، خطاب قاسم بك أمين.

[307] مشاهير ج1، ص283 — المنار ج8، ص487.

[308] بين رسائله رسالة إلى عالم في حيدر أباد بالهند ، تاريخ ج2، ص519، وأخرى إلى مولاي عبد الحفيظ سلطان مراكش ص545، وغيرها إلى بعض كبار الموظفين الأتراك في الأستانة وغيرها ص532، 533، وإلى الشيخ اليازجي العالم السوري ببيروت ص540، 541، 557 وإلى غيره من العلماء السوريين بحلب ودمشق، وغيرهما، ص542، 543، 548، 549، وإلى مولاي إدريس بن مولاى عبد الهادي العالم والقاضي في فاس بمراكش ، ص546، 547، انظر أيضًا رسائله الإصلاحية إلى أعضاء جمعية العروة الوثقى في الأقطار المختلفة ، ص488 — 513.

وكانت قبل ذلك ممنوعة من ذكر اسمه؛ لأن مجرد ذكر اسمه يستلزم تذكر الإصلاح.[309]

ويبدو المدى الذي بلغت إليه شهرته، من رسائل العزاء التي أرسلت إلى أقاربه وبعض أنصاره عند وفاته، من سوريا والهند، والبحرين وسنغافورة وجاوة والفرس، والروسيا وتونس والجزائر، وهي البلاد التي تكون العالم الإسلامي.[310]

أضف إلى ذلك ما ذكرته الجرائد والمجلات التي ترجمت له، وابنته، وتكلمت على سيرته وأعماله، ولم يكن ذلك قاصرًا على صحف البلاد التي ذكرناها، بل إن الصحف العربية في سان باولو بالبرازيل، وفي نيويورك، كتبت عنه أيضًا، وقرنت اسمه واسم جمال الدين، بأسماء مدحت باشا، وفؤاد باشا، أبطال الحرية في تركيا.[311]

وقام العلم الأوروبي بواجب التكريم للراحل بالرسالة التي بعث بها الأستاذ براون العالم الإنجليزي، ومؤرخ الدين، الذي يتحسر لموت الشيخ محمد عبده ويقول: «في مدة عمري رأيت كثيرًا من البلاد والعباد، وما رأيت مثل الفقيد المرحوم

---

[309] تاريخ ج3، ص150 هامش.

[310] تاريخ ج3، ص285 — 298، هورتن ج14، ص76.

[311] تاريخ ج3، ص150، جريدتا الأفكار والمناظر بالبرازيل وجريدة مرآة الغرب في نيويورك، محررو هذه الصحف سوريون مسيحيون نعوا فقده إلى جميع الناطقين بالضاد من مسيحيين ومسلمين.

قط لا في الشرق، ولا في الغرب. ووالله كان وحيدًا في العلم، وحيدًا في التقوى والورع، حيدًا في البصيرة والاطلاع على ظواهر الأمور وبواطنها، وحيدًا في جميل الصبر، وخلوص النية، وحيدًا في البلاغة والفصاحة، عالمًا عاملًا، محسنًا ورعًا، مجاهدًا في سبيل الله، محبًّا للعلم، ملجأ للفقراء والمساكين».[312]

ويظهر من ازدياد ما ينقل من مصنفاته إلى اللغات الأخرى، أن نفوذه ما زال قويًّا في بلاد الشرق خارج مصر. فقد روى محمد رشيد رضا صاحب المنار أن تلك الرسالة القيمة التي صنفها الشيخ محمد عبده في التوحيد وسماها رسالة التوحيد، والتي تتضمن جملة التعاليم التي كان ينادى بها ويدعو إليها، نقلت إلى اللغة الأوردية، وأصبحت من الكتب المدرسية في جامعة عليجرا وغيرها من جامعات الهند. [313] ويروي الدكتور أحمد محي الدين في تاريخه عن تطور التجديد في تركيا، أن م. عاكف، نقل أجزاء من مصنفات محمد عبده إلى اللغة التركية، ويرى إمكان وجود الصلات القريبة بين تعاليم محمد عبده، وآراء مصلحي الترك

[312] نفس المصدر ، ص298- 299.

[313] انظر مقدمة الرسالة ص.

المحدثين، وكذلك بينها، وبين آراء وطنيتي الأتراك، وإن كانت الصلة بينه وبين هؤلاء على نحو أقل.[314]

ويروى المؤلف نفسه أيضًا أن صاحب المنار صنف كتابًا في توحيد المذاهب، نقله إلى التركية أحمد حمدي.[315]

ويقرر الدكتور هـ. كريمر وهو عالم هولندي درس عن قرب أحوال الإسلام في جزر الهند الشرقية الهولندية،[316] أن تعاليم محمد عبده آخذة في الانتشار في مالايو، وقد كتب يقول: «أما محمد عبده فإن نفوذه أخذ يتغلغل في جزائر الهند الشرقية الهولندية، وقد نقل تفسيره إلى اللغة الملاوية وطبع في أجزاء يمكن الحصول عليها. وتسعى المحمدية[317] في نشر تعاليمه في «يوجي أكارتا» من غير ذكر لاسمه في أغلب الأحوال، أما التقدم الذي ينهجون فيه نهج الغرب، فأهم عناصره هنا نشر التعليم والعناية بالشئون الصحية والإرشاد

---

[314] انظر الاتجاه الثقافي عند الأتراك المحدثين ، تأليف أحمد محي الدين الدكتور في الفلسفة طبعة ليبزج 1921 ، ص64.

[315] اسم الكتاب بالتركية مذهبين تلفيقي وإسلامية بيرناقطاجه جميعى – يعرض الكتاب كذلك لمحاربة الخرافات والتقليد ويدعو إلى الاجتهاد وإلى الوحدة السياسية في الإسلام وتوحيد الشريعة ... وهذه الآراء هي آراء مدرسة الشيخ محمد عبده.

[316] الدكتور كريمر دكتور في الفلسفة من جامعة ليدن سنة 1921 ، وكان مندوب جمعية الإنجيل الهولندية في جزائر الهند الشرقية سنوات عديدة – وأنى لأقدم إليه جزيل الشكر على وصفه المفيد القيم وأشكر كذلك الدكتور أ.هـ بروسنر (دكتور في الفلسفة من جامعة شيكاغو سنة 1920) وهو مقيم في تيبنج بتنجى دبلى ، سومطره ، جزائر الهند الشرقية فقد كان له الفضل في حصولي على الوصف المذكور.

[317] المحمدية هي إحدى الجمعيات الإسلامية التي غرضها الإصلاح الديني وإصلاح التعليم بين مسلمي مالايو – انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة شركة إسلام للأستاذ برج ، أما الإرشاد فهي حركة شبيهة بها.

بواسطة دعاة من الشباب يتبعون في كل شيء أساليب الهيئات التبشيرية وينهجون نهجهم. وإلى جانب المحمدية تكثر حركة الإرشاد في باتافيا وبين العرب. وهي حركة إصلاحية يقودها الشيخ أحمد السوركاتي من أهل باتافيا، وهو رجل قادر، ونكاد لا نجد حركات تستحق الذكر يقوم بها أهل السنة أو من يعارضهم. وهناك حركات كثيرة أقل شأنًا، ولكنها لم تنظم تمامًا، وكثيرًا ما تثور المعارضة ضد المصلحين. وكثرة الناس من أهل السنة المتعنتين، وهم تحت سلطان رجال الدين وهم محافظون شديدو التمسك بالقديم.

وهناك أيضًا حركة أخرى مستقلة هي حركة الحاج سالم، وهو رجل موهوب، ولكنه كثير الشذوذ، يسعى إلى استغلال شركة إسلام،[318] ومؤتمرات إسلام هندية في توجيه عقول الناس وجهة الجامعة الإسلامية. أما أهل السنة الذين يجاهدونهم، ولا سيما العرب منهم، فهم يستشيطون غضبًا على المجددين ويسمونهم وهابيين.[319]

---

[318] هي جمعية سياسية ألفها مسلمو إندونيسيا في سنة 1910 ، وغرضها تحسين مركز الوطنيين في النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وهي تتمسك في نفس الوقت بالإسلام الذي هو الرابطة الطبيعية التي تربط العناصر المختلفة من الجانب الأعظم من السكان الوطنيين في جزائر الهند الشرقية الهولندية — انظر دائرة المعارف الإسلامية — مادة شركة إسلام.

[319] من الغريب أن حزب محمد عبده في مصر سمى كذلك سخرية واستهزاء انظر جولدزيهر ، ص36 ، ومشاهير ، جـ1 ، ص284.

يظهر من هذا أن محمد عبده كان أحد الشخصيات التي هيمنت على مجرى التفكير القرن الماضي، فقد طبع عصره بطابعه ككاتب وعالم ووطني ورجل من رجال الأعمال العامة. وهو في هذه الأمور كلها يستحق الموازنة بمعاصريه من زعماء البلاد الأخرى ولكنه باعتباره مصلحًا يبدو عظيمًا حقًّا؛ لأنه كما لاحظ جورجي زيدان لا يقوم في أية أمة مهما طال تاريخها، إلا أفراد قلائل يسعون إلى مثل ما يسعى إليه من الإصلاح.[320]

لم يعش حتى يرى ثمار جهوده ولكن آثاره التي بعثها وحركها عاشت بعده. وقد قال كاتب معاصر: «لقد مات في فجر العهد الجديد، الذي كان الفضل في انبثاقه بالعالم الإسلامي راجعًا لتعاليمه».[321]

أما أن مجيء هذا اليوم كان بعيدًا ومشكوكًا فيه، فهذا يدل على بعد نظره وينبئ بمقامه بين كبار زعماء الإسلام ومصلحيه.

---

[320] من الغريب أن حزب محمد عبده في مصر سمى كذلك سخرية واستهزاء انظر جولدزيهر، ص36، ومشاهير، جـ1، ص284.

[321] تاريخ جـ3، ص42.